البصـــرة - حيفـــا

— ١ —

في شفتيك تفتح الطيور بيتها ، الفصول شمسها ، الامطار امسياتها
وأنت تدخلين كل سعفة

تحدّثين الماء عن حقائبي ،

مواسم يسهر فيهـــا الحب وهو يطعم الدماء للندى .

لبست عينيك ، ارتحلت بين جمرتيـــن — بين البيت والشمس وفي الطيور والفصـــول ، جاءني النخيل عاشقا وفي كفيه حبل . صاح غيمة وأعطى طرف الحبل لها ، اعلن ان الجسر صالح لتعبيري الـــى المنفى معي .

أيتها الحبيبة التي تصبّ وجهها على ذاكرتي ، الشوارع التمّت عليّ ، صرت ملجأ لخطـوتي ...
ركضت هاربا ووجهك الدليل ، وجهك انتفاضة النخيل ، وجهك المحطة التي شربتها .
شرقت بالمياه من متاعبي .

أيتها الحبيبة العاشقة الغبار ، وجهي طرق والسكة الحديد فوق الشاطىء البحري تمتـ الى حيفا .
أتت اليّ موجة تحمل لي هدية ،

لم تدن مني ، رفعت ذراعها وقدمت هدية البحر الى النخيل : كنت أنت . قلت : « هيا نصعد التـل الى البيت ! » نسيت انني معلق في شفتيك حيث تفتح الطيور بيتها ، الفصول شمسها ، الامطار أمسياتها —
معلق يزورني القطار ، فافتحي الشبابيك على المنفى ، وأطلقي العصافير الى الجنوب ، بيروت ! متى سافر آخر مرة الى حيفا قطارك ؟ احمليني يا حبيبة النخيل ، يا حبيبتي احمليني ، فالظـــلام للطريق والغريب للسفر ،
هيا حبيبتي اهطلي عليّ حقلا من مطر !

— ٢ —

تذهبين بوجهي ، وأشرب وجهك أشربه .
أيها العطش المتعثر بي ،
أيها الضيف ، قل لي : متى يغـــرس الحب أسنانه ؟
أنت أيتها العرس ، فلتفتحي الهـودج الملكي ،
ضعي في الحقيبة وجهي ،
سبحي باسمي المتدحرج فوق الشوارع . قيّدنا الحب ثم غفا
دون ان نستضيف مراكبه .

انه الحب يلبسنا ، ويشتي بأثوابنا

عندما تصعدين القطار خذيني ، ضعي في الحقيبة وجهي —
— « أيها الجبلي ، أرى البحر يمـــلأ أردانك ، السنديان جفونك . كل القرى تستفيق عـلى راحتيك تعلمك الحب والموت ، تنذرك الليل والرمل ، تدعوك باسم تدلى على شجر التوت والزعفران . أانت الحبيب المقدس ؟ اني انا العاشقه !
جسدي طافح بالنخيل وبالانهر ، اهرب من الصيف يا أيها الجبلي ، فما بيننا غير سنبلة غارقه .
حين اسدلت فوق الشبابيك أستارها
جئتني تستبيح حديثي ، بقيت الى الصبح أقطب جفني وأفرطه ،
كان للنوم مملكه أنت حارسها
خذ قميصي هذا ، وضعـــه على كتفيك . قد امتص برد الصباح الستائر يا عاشقي ،
ها هي الطير جاءت تزين أعناقنا
بنديف من الريش والثلج ، جاءت تقطر في شفتيّ سواحلها ،
حين فتحت عينيّ كان اسمك المتدلي على شجر التوت والزعفران يعانقني ! »
ها هو اسمي يفتش عن مستقرّ بعينيك ، فلتفتحي الهودج الملكي ، ضعي في الحقيبة وجهي :
أنت في النهر سائحةٌ ،
أنت في النخل عاشقة ،
أنت في البحر كاهنة
ويحاصرني العشق ، يمنح وجهي سياطا
وفمي لغة من قرى النمل ، أين المحطات تكشف لي عن دفاترها ؟ وتقايض أمسي ؟ تساجـله ؟ تنتقي منه أحجارها ؟

انها الشمس ، تبني على جبهتي وكرها ،
وتغادره في مناقيرها حزمة من شرايين وجهي ،
وتتركني واقفا في المحطات أنشر كفّي : تمر النوافذ ، يصفعني الموج ... كل المحطات أغلقها حرس الليل ، والبحر يطرد عشاقه .
صدئت عربات القطار ، وعبر الحدود تلوح المدينة راقصة في الضباب ، خذيني اليها ، ضعي في الحقيبة وجهي ، فها هي حيفا ، ذراع ... وتفتح أبوابها !

ـ « انها البصرة ـ النخل يا أيها الجبلي انتبه !
في جفوني وجدت عذوقا تشير الى منزل
أنا عرّافه الماء والنخل ، أقرأ للبحر مرثية
كتبتها المناديل في شفتيك ... أعـــدها اليّ
قميصا ، وضعه على كتفيّ ، قد امتص برد الصباح
الستائر يا عاشقي
المعابد تفضح أعراسها ،
المواكب تصهل في رهج الشمس ، تحمل اشرطة
وسلاسل من ذهب ـ
ما لأضلاعك السمر منقوعة يا حبيبي بعشقي ؟
أنا عرّافة الماء والنخل ، دعني أضعك امـــام
الموأكب تقرأ مرثيتي ؛
فالمعابد أعتقت الراهبات اللـــواتي تزوجن الهة
البحر ، باركت الشمس كل صبية !
أيها الجبليّ ، اليك يدي ، وخذني الى معبد
تنحني فيه آلهة البحر حبا بنا ،
وتتوجنا بغصون من اللوز والبرتقال ... »

أسلم البحر أقنعتي للصاري ، تركت القطار يمر ،
سألت المحطات : « أين المناديل ؟ » قالت :
ـ « أقفل الحرس الباب عند الحدود ! »
فاحتوتني الشوارع أسأل عنك الوجوه ، نسيت
بأن الحقيبة تحمل وجهي ، فما عدت ألمح غيرك ، بيروت
منفية عن شواطئها .
أقفل الحرس الباب عند الحدود ...
ـ ولكنها البصرة ـ النخل ، تحضن
عشاقها ،
في مفاتيحها تستحم الحدائق ، في دمها كل
عشق الجزيرة ! »
أقفل الحرس الباب عند الحدود ، وقد
كنت أنت الا بره ! »

٣ ـ

ها هو الماء يمد فوق جبينك ، تمخره الجزر
اللؤلؤية ، تقتنص الطير غدرانه ،
وتفتش فيه الينابيع عن خيمة تفتديها . أغرق
فيك ؟ الطريق طويل عـلى راحتيك ، دعي راحتيّ
تمسّح عن شفتيك بقايا المطر
(قطرة من مطر
علقتها الرياح على شفتيك .)
وقف الليل بين الشجر ،
نصب الموج أعلامه في شقوق الاثر ـ
وأنا المتأرجح بينهما ، ضاع في القطار وضاعت
محطاته !
وتقول المناديل : « أين الاكف تلوّح بي ؟ »
كنت أنتها الضائعه
كنتَ عاشقة ، جائعه
تحملين الدفاتر في الصبح ، تنسينها فوق رف
من التوت والزعفران ، وعند الظهيرة تأتي الحديقـة
تحضن أقدامنا ،
والسماء القريبة ترمي على مقلتيك عناقيدها ،
وتجيئين محلولة الشعر قبل المساء ، وتنتشرين على
السهل والتل ، تختمرين بكل الجذور ، تصيرين خبزا
وملحا وقنبلة . أي زاد يراودني ؟
هدأ الليل . طاف الغبار على ضجة العجلات ،
أطلّ الصباح على البصرة ـ النخل ... والبحر يغسل
طفلته ويهدهدها ـ

(كنت بين الشوارع تخترقين النخيل الى ساحل
الحب ، تفترشين الرمال على سفح قريتنا)
هدأ الليل . مدّ صدى العجـــلات مراوده في
العيون التي ابحرت ـ

(أسمع الموج يغسل عينيك ، وجهك ، ساقيك ،
ثم يصيح : « الي بثوبك امسح به المـــاء والرمل عن
جسد العاشقه »
يستعير ثيابي ، وآخذ أخصف من ورق النخل
والزعفران على جسدي) .
وتشمين رائحة الفجر والموت في ضجة العجلات
التي تلتوي في دمائي .
حين يستفرق الحب أشواطنا في الحديقه
يكشف السر عن قرية لم يصلها القطار ؛
حين تغزو جفونك مملكتي
تفتحين لكفي طريقه .
حين كنت أودع وجهك قبل السفر
وأشيع نافذة في القطار تطلين منها
لحق الموج آخر حافلة ، وتوزع بين الشبابيك
يحرس وجهك من ضجة العجلات ، يقطر في شفتيك
مناديل حبي ! فها هي حيفـــا ... ذراع ، وتفتـح
أبوابها ... خذيني اليها ... ضعي في الحقيبة وجهي

وتكونين في البيت راحلة ،
في القطار ملوحة بالمناديل ... تخفين تحت
القميص بروقا وأوسمة ومحاراً . رأيتك كالبحر نائية ،
كالبشائر دانية ، ومحصنة بالينابيع والليل ، تبتسمين
بصوت العصافير وهي تحطّ عـــلى كتفي ، تفرشين
السماء على شفتيك ووجهك ـ
ـ « بعد قليل سيأتي المسافر يأخذ زوادة من
يديك ويرحل . فلتبشري ، يا حبيبـــة ، لم تبق غير
الحديقة تحفظ أشواطنا في الظهيره »
سترحل عنها العصافير حاملة
في مناقيرها حزمة من خطانا الكسيره !
أين وجهك يدفع عني ديون السنين العجاف ؟
جئت للنخل والنهر أسأل عن قمر ضـــاع بين
الضفاف !

بغداد

خالد علي مصطفى